الدكتور عماد الدين خليل

الجانب الإداري في مملكة نور الدين محمود

٥٤١ – ٥٦٩ = ١١٤٦ – ١١٧٣م

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

تمهيد

بدأ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي حكمه عام / ٥٤١هـ — ١١٤٦م لامارة محدودة لاتتجاوز مدينة حلب الا قليلا : وتوفي (عام ٥٦٩هـ — ١١٧٣م) وهو يحكم دولة تمتد من حدود بلاد فارس حتى صحراء ليبيا. ومن جبال الاناضول حتى النوبة واليمن .....

ليس هذا فحسب بل انه انشأ دولته هذه وسط تحديات الغزاة الصليبيين الذين انزرعوا في قلب المنطقة(في الجزيرة الفراتيه والشام وفلسطين): وكانوا لايزالون — حتى ذلك الحين — يملكون قوتهم وحيويتهم وقدرتهم على الامتداد .

لقد نفذ الرجل سلسلة من الانتصارات العسكرية والسياسية ضد الصليبيين . وعزز بذلك المنجزات السابقة التي حققها قادة سابقون في مراحل (البدايات): مودود بن التونتكين (٥٠٢ — ٥٠٧هـ) = (١١٠٨ — ١١١٣م) آق سنقر البرسقي (٥١٨ — ٥٢١هـ) = (١١٢٤ — ١١٢٧م) : من ولاة السلاجقة في الموصل : سقمان بن ارتق (٤٩١ — ٤٩٨هـ) =(١٠٩٧ — ١١٠٤م) ايلغازي بن ارتق (٥١٣ — ٥١٦هـ)=(١١١٩ — ١١٢٢م)بلك بن بهرام(٥١٦ — ٥١٨هـ)= (١١٢٢ — ١١٢٤م) من اراتقة ديار بكر عماد الدين زنكي (٥٢١ — ٥٤١هـ)= (١١٢٧ — ١١٤٦م) مؤسسي اتابكية الموصل وحلب ، وفتح الطريق لظهور القيادات التي قامت بعملية التصفية النهائية للوجود الصليبي : الناصر صلاح الدين والظاهر بيبرس وآل قلاوون. فهو— من ثم — يعد حلقة الوصل الخطيرة في تاريخ الصراع ضد الصليبيين . ومن هنا كسب نور الدين اهميته في ميدان البحث التاريخي حيث توالت الابحاث عن دوره هذا بينما بقيت الجوانب الاخرى : الادارية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، والتي لاتقل اهمية عن سابقتها بقيت لاتحظى الا بقدر قليل من الاهتمام .

وليس هذا البحث سوى محاولة : قد تعقبها محاولات : لدراسة الجوانب

الاخرى في دولة نور الدين هذه . بدأتها بتحليل للظروف التي تشكل فيها الجهاز الادارى للدولة والرجالات الذين شغلوا اهم مناصبه اعقب ذلك عرض مقارن لوظائف هذا الجهاز ومؤسساته الرئيسية . وجاء المقطع الذي يليه لكي يعالج (القضاء) كمؤسسة تمتعت باستقلال كبير وصلاحيات واسعة ويعرض لاهم الرجالات الذين شغلوه ، وخلصت — أخيراً — لعرض الملامح الاساسية لادارة نور الدين تلك .

اعتمد نور الدين في ادارة دولته المتنامية على عدد كبير من الرجال كان يعرف كيف ينتقيهم بعيدا عن انتماءآتهم الاجتماعية . وناظرا إلى قدراتهم ونزاهتهم وثقافتهم وقبولهم لدى جماهير المسلمين . وكان يعرف كيف يخضعهم لمراجعته الدقيقة الصارمة ويوقفهم في الوقت المناسب منزلا بهم العقاب العادل (١). وكان كما يصفه العماد الاصفهاني« ذكياً المعياً، فطناً لوذعياً، لاتشتبه عليه الاحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال» (٢) . ولم يتقدم لديه الا ذوو الفضل والقدرة على الانجاز الامين المسؤول(٣)، بغض النظر عن الاعتبارات الشكلية التي يرفضها نور الدين اشد الرفض . حتى ان عددا من كبار موظفيه كان من الخدم والعبيد وعددا آخر كان من غير الشاميين . ممن جاءوا من اقاصي المشرق والمغرب ، فولوا اعلى المناصب وصعدوا قدما صوب ارقى الدرجات لانهم جاءوا إلى نور الدين وهم يملكون كفاءات الادارة الناجحة التي اشرنا اليها قبل قليل .

ويبدو ان نور الدين اعتمد نفس النظم الادارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد ارسوا قواعدها العريضة ، وجاء الايوبيون والمماليك من بعدهم لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول . لكن نور الدين اكد على مؤشر اساسي في ميدان الادارة ذلك هو ان كفاءة اجهزتها وحصيلة معطياتها لاتعتمد على بنيان الجهاز او تركيب المنصب نفسه قدر اعتمادها على (الرجال) انفسهم الذين يعهد اليهم بتسييرها . ومن ثم فاننا نجد نور الدين

---

(١) انظر ابن القلانسي : دمشق ص ٣٣٦ وابن قاضي شهبه : الكواكب ص ٢٥ والعماد الاصفهاني : البرق ص ١٢٠ — ١٢٢ ، ١٤٦ — ١٤٧ وابا شامه : الروضتين ١/٥٨٢ — ٥٨٣ وابن واصل : بني ايوب ١/٢٦٩ .

(٢) البرق : ص١٢٠ — ١٢١ .

(٣) Elisseeff : Nur Ad -- dın, PP 785 -- 786

يملأ اجهزته بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال كانوا يتباينون في الانتماء الجنسي والجغرافي والاجتماعي ولكنهم – في الاغلب – يجتمعون على تلك الميزات التي لاتستقيم بدونها ادارة ما .

في البداية . عندما قتل ابوه عماد الدين زنكي عام(٥٤١هـ = ١١٤٦م)وجد في بعض رجالاته المتقدمين في ميادين الادارة المدنية والعسكرية ساعده الايمن الذي اعتمده في الوصول إلى الحكم في حلب وتثبيت اركان امارته الفتية هناك. اتصل به اسد الدين شيركوه عم الناصر صلاح الدين وقال له : « اعلم ان الوزير جمال الدين الاصفهاني – اكبر وزراء زنكي – قد اخذ عسكر الموصل وعمل على تقديم اخيك (سيف الدين غازى) وتمليكه الموصل وقد انضوى اليه جل العسكر . وقد انفذ الي يغريني على اللحاق به ، فلم استجب لطلبه وقد رأيت ان اصيرك إلى حلب فتجعلها كرسي ملكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام.وانا اعلم ان الامر يصير جميعه اليك لان من ملك الشام ملك حلب ، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق». فما كان من نور الدين الا ان اصدر امره بان ينادى ليلا في عساكر الشام للاجتماع ، وانطلق من ثم إلى حلب فدخلها في السابع من ربيع الاول . واعتمد اسد الدين شيركوه الذي اصبح اشبه بوزيره الاول (٤).

ولم يكن دور كل من سيف الدين سوار ، القائد العسكري المشهور الذي عمل نائباً لزنكي في حلب ، وصلاح الدين الياغسياني ، رجل زنكي المعتمد وأحد كبار مستشاريه (٥)، ليقل عن دور شيركوه في اسناد مركز نور الدين في الايام الفاصلة التي اعقبت مقتل زنكي ،وتمكينه من انشاء امارته في حلب (٦)

---

(٤) ابو شامة : الروضتين ١/١/١١٩ – ١٢٠ .

(٥) انظر فصل ،نظم الموصل الا دارية في عهد زنكي من كتاب (عماد الدين زنكي) للمؤلف ص١٩٤ – ١٩٥ ، ٢٤٥ – ٢٤٦ .

(٦) انظر ابن القلانسي : دمشق ص٢٨٥ وسبط بن الجوزي ٨/١٩١ .

وفي عبارة لابن العديم يقول فيها ان الياغسياني « كان يدبر امور نور الدين في حلب ويقوم بحفظ دولته » وفي ايامها الاولى (٧) ما يوحي بأن الرجل ظل على ما كان عليه ايام زنكي : مستشار الامارة الاول واحد كبار اداريها . كما ان نور الدين اتصل عام ٥٤٤هـ بجمال الدين الاصفهاني ، كبير وزراء الموصل في عهد زنكي وابنه سيف الدين غازى من بعده وصاحب الخدمات الادارية الممتازة وحاول اقناعه بالالتحاق بخدمته قائلا له « لابد من ان تكون عندي فلي من الحق مثل ما لأخي — غازى — وانا احوج اليك منه » فاجاب الرجل«انت فيك من الكفاية ما يستغنى به عن وزير ومشير ، وليس عندك من الاعداء ما عند اخيك ، لان عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، واعداء اخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، واذا كنت عند اخيك فالنفع عائد اليك » (٨) فكف نور الدين عن المطالبة به .

ويبدو ان نور الدين لم يشأ ان يجعل جل اعتماده على العناصر الادارية المخضرمة ورأى ان يطعمها بعناصر جديدة اكثر ملائمة وفهماً لاهدافه ، اسوة بما يفعله مؤسسو الدول في اعادة تنظيم اجهزتهم الادارية وترشيح العناصر الاكثر تقبلا للوضع الجديد وتجانساً معه . وقد كان مجد الدين محمد ابو بكر ابن الداية ، شقيق نور الدين في الرضاعة ، واخوته شمس الدين علي وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن وبهاء الدين عمر ، الذي لم يبرز في ميدان الادارة كما برز اخوته ربما لصغر سنه ، على رأس هذه العناصر دون شك ، حيث استناب نور الدين اولهم في حلب وولاه كما يقول ابن ابي طي « جميع اموره وجميع مملكته » (٩) واصبح استناداً إلى ذلك رجل الدولة الاول بعد نور الدين منذ عام (٥٤١ هـ = ١١٤٦م)وحتى وفاته عام(٥٦٥هـ = ١١٦٩م)

---

(٧) زبدة الحلب ٢/٢٨٩ — ٢٩٠

(٨) ابن الاثير : الباهر ص٩٧ .

(٩) ابو شامه : الروضتين ١/١/١٢٤ وانظر ابن العديم : زبدة الحلب ٢/٣٠٢

ويتحدث العماد الاصفهاني عن المكانة العالية التي بلغها مجدالدين واخوتهفي امارة نورالدين فيقول « كان مجد الدين رضيع نورالدين قد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ففوض اليه نورالدين جميع مقاصده وحكمه في الملك فلا يحل ولايعقد إلا برأيه » وكان يسكن قلعة حلب . وقد سلمت قلعة جبر وتل باشر لاخيه الاصغر سابقالدين عثمان . وحارم لاخيه الثالث بدرالدين حسن .وثمة مواقع عديدة أخرى مثل عزاز وعين تاب وغيرهما كان مجدالدين يشرف عليها بنفسه عن طريق نوابه (١٠) . وعندما هدمت الزلازل شيزرعام ٥٥٢هـ = ١١٥٧ م واستولى عليها نورالدين من بني منقذ سلمها إلى مجدالدين (١١) . ويؤكد سبط بن الجوزي ان مجدالدين واخوته « كانوا أعز الناس على نورالدين وكان قد اسكنهم معه في قلعة حلب ولا يصدر الا عن رأيهم » (١٢) .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن مجدالدين أحسن تدبير المهمة التي عهدتاليه وانه كان عند حسن الظن .(١٣) وظل طوال خمسة عشر عاماً يتمتع بثقة سيده ومحبته وتفويضه الامور في قاعدة ملكه حلب . وقد امتاز الرجل بشجاعته وتدينه وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية (١٤) وعندما توفي عام ٥٦٥هـ= ١١٦٩ م نفس السنة التي توفي فيها نائب كبير آخر في دولة نورالدين يدعى العمادي محمد ، حزن نورالدين حزناً عميقاً وقال وهو يبكي : لقد قصت جناحاي »(١٥) وسرعان ماعهد بجميع ماكان له من مناصب وصلاحيات إلى

---

(١٠) عن ابي شامة : الروضتين ٥٩٣/١ .

(١١) ابو شامة : الروضتين ٢٧٦/١/١ .

(١٢) مرآة ٣٢٤/٨ – ٣٢٥ .

(١٣) انظر ابن العديم : زبدة الحلب ٣٠٢/٢ وسبط بن الجوزي : مرآة ٢٨٠/٨ - ٢٨١ وابن الاثير : الكامل ، ٣٥٩/١١

(١٤) سبط : مرآة ٢٨١/٨ .

(١٥) نفسه ٢٨١/٨

أخيه شمس‌الدين علي(١٦)الذي غدا بمرور الوقت « أكبر الامراء النورية في حلب » (١٧) أما أخوه الآخر سابق‌الدين عثمان فقد جعله مقدم عساكره(١٨).

وفي عام ٥٦٩هـ = ١١٧٣م ،السنة التي توفي فيها نورالدين ،كان بنوالداية قد تمكن نفوذهم في حلب تماماً وأصبح « امرها اليهم ،وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده » (١٩) . وكان شمس‌الدين علي قد عهدت اليه أمور الجيش والديوان ،وعهدت الشحنكية إلى أخيه بدرالدين حسن ،وكانت بيد هؤلاء الاخوة جميع المعاقل المحيطة بحلب(٢٠) .

ولا يذهبن إلى الظن أن تفويض أمور حلب إلى بني الداية يشير إلى نوع من الضعف الاداري أو الاتكالية في موقف نورالدين .فمن جهة رأينا قوة شخصيته وهيمنته على أجهزة الدولة وموظفيها وممارسته الامور بنفسه (٢١)، ومن جهة اخرى كانت ساحات الجهاد قد استغرقت معظم وقته مما لم يتح معه التفرغ الكامل للاعمال الاداريّ الداخلية ،ومن جهة ثالثة لم يكن بنو الداية يمارسون صلاحياتهم الواسعة إلا في اقليم واحد فحسب من أقاليم الدولة النورية الواسعة هو اقليم حلب،وثمة أقاليم ومدن اخرى كان رجال آخرون وأسر أخرى يمارسون صلاحياتهم فيها بما لايقل في اتساعه عما فوض به بنو الداية ، لابل أن الصلاحيات الشاملة التي عهدت إلى العماد الاصفهاني كانت أوسع بكثير مما عهد إلى بني الداية ،وسنرى ،فضلاً عن هذا وذاك ،ان بني الداية لم يكونوا هم أول وآخر من برز في ميدان الادارة بل برزت معهم، وطيلة العصر النوري ، اسماء لم تكن لتقل عنهم شهرة وانجازاً . . .

(١٦) ابن الاثير : الكامل ٣٥٩/١١ .
(١٧) ابن الاثير : الكامل ٤٠٧/١١ الباهر ص١٦٣ ابن العديم ، زبدة ١٠/٣ — ١١ .
(١٨) سبط : مرآة ٢٨١/٨ .
(١٩) ابن الاثير : الباهر ص١٦٣ ابن العديم ، زبدة ١٠/٣ — ١١.
(٢٠) ابو شامة : الروضتين ٥٩٥/١
(٢١) وانظر شهادة العماد الاصفهاني في البرق ص١٢٠ — ١٢٢ ، ١٣١ — ١٣٢ .

ولابن ابي طي تفسير لهذه الخطوة التي خطاها نورالدين بصدد اعتماد مجدالدين بن الداية ،لايستقيم ومجريات الاحداث . فهو يقول «انه لما بلغ نورالدين اتفاق نجم‌الدين ايوب مع صاحب دمشق من آل طغتكين ،خاف أن يفسد عليه أسد الدين لصالح صاحب دمشق بحصول أخيه نجم‌الدين عنده فمال إلى ابن الداية حتى ولاه جميع اموره .. فشق ذلك على أسد الدين» (٢٢) . ونحن نعرف أن علاقة أسد الدين بنورالدين ظلت كما هي قوة وانسجاماً، بل أنها أخذت تزداد مع الايام حتى بلغت قمتها في ترشيح أسدالدين لقيادة الحملة النورية على مصر في رحلاتها الثلاث .. ونعرف كذلك أن نورالدين اعتمد اسد الدين للاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق والتمهيد لدخولها سلماً بعد إذ تبين استحالة أخذها عنوة .وقد توجت هذه الاتصالات الناجحة بدخول نورالدين دمشق عام ٥٤٩هـ= ١١٥٤م بمعونة الاخوين نجم الدين وأسد الدين حيث ازدادت مكانتهما ارتفاعاً وبرز إلى دائرة الضوء ابنا نجم‌الدين وهما الناصر صلاح‌الدين وتورانشاه كأميرين متقدمين في الدولة كما سنرى ..وأبو شامة يشير بالحرف الواحد إلى أنه «كان لأسدالدين اليد الطولى في فتح دمشق فولاه نورالدين امرها ورد اليه جميع أحوالها» (٢٣) . وزاد على ذلك فاقطعه الرحبة (٢٤) .... ويواصل أبو شامة حديثه فيقول « وتوسط أسدالدين في أمر أخيه نجم‌الدين مع نورالدين (والوساطة هنا — كمايبدو — لاتأتي بمعنى المصالحة وانما بمعنى التعريف والتقديم) فأقطعه اقطاعاً وسيره الى دمشق فاقام فيهاورد نظر دمشق اليه ، وولى ولده تورانشاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن استبدل بأخيه صلاح‌الدين»(٢٥). وكان صلاح‌الدين قد

---

(٢٢) ابو شامة : الروضتين ١/١/١٢٤

(٢٣) الروضتين ١/١/٢٣٩

(٢٤) المصدر نفسه .

(٢٥) الروضتين ١/١/٢٥٠ = ٢٥١

فارق اباه نجم‌الدين منذ عام ٥٤٦هـ = ١١٥١م وانتقل إلى خدمة عمه أسد الدين في حلب ،فقدمه بين يدي نورالدين فقبله واقطعه اقطاعاً حسناً (٢٦) ..

وابن أبي طي هو نفسه الذي يحدثنا كيف ان نور الدين « استخص صلاح الدين والحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر » (٢٧) ... ويذكر ابن الاثير كيف ان كلا من نجم الدين وأسد الدين صارا عند نور الدين بعد فتح دمشق ، في اعلى المنازل « لاسيما نجم الدين فان سائر الامراء كانوا لايقعدون عند نور الدين الا ان يأمرهم أو احدهم بذلك، الا نجم الدين فإنه كان اذا دخل اليه قعد من غير ان يؤمر بذلك» (٢٨). كما يحدثنا كيف ان اسد الدين كان قد لزم خدمة نور الدين منذ ايام والده زنكي .. وبعد ان تولى امارة حلب راح يقربه ويقدمه « ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره » (٢٩) .

وإلى جانب بني الداية وبني ايوب تبرز اسماء لامعة اخرى في ميدان الادارة يقف العماد الاصفهاني الكاتب في قمتها ولا ريب ...

غادر العماد بغداد ميمما شطر الشام فوصل إلى دمشق في شعبان سنة ٥٦٢هـ =١١٦٦م واعانه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري، وانزله بالمدرسة الشافعية النورية وسرعان ما توثقت العلاقة بينه وبين بني ايوب : نجم الدين ، اسد الدين وصلاح الدين .. ثم ما لبث كمال الدين الشهرزوري ان قدمه في اواخر السنة إلى نور الدين ونوه بشأنه . فرتبه نور الدين في ديوانه منشئا في مطلع عام (٥٦٣هـ =١١٦٧م) وصار رئيس ديوان الانشاء وكاتب السر ومدبج الوثائق الرسمية حتى وفاة نور الدين . وكان يتلقى من بني ايوب في مصر تقارير

---

(٢٦) الروضتين ١/١/٢١٠

(٢٧) نفسه ١/١/٢٥١ – ٢٥٢.

(٢٨) الباهر ص١٢٠ .

(٢٩) الكامل ١١/٣٤٢ .

مفصلة عما يستجد فيها من احداث فيقرؤها على نور الدين ويكتب اجوبتها. وقد جاء تعيين العماد في هذا المنصب – كما يذكر هو نفسه – بعد استعفاء ابي اليسر شاكر بن عبدالله من الخدمة في ديوان الانشاء واعتكافه في بيته . وهو يذكر ايضاً انه وجد من نور الدين منذ ذلك الوقت « الاعزاز والتمكين على الايام» . وقد اعتمده نور الدين ، فضلا عن ذلك ، في عدد من السفارات : إلى شاه ارمن صاحب خلاط في ارمينيا اواخر سنة ٥٦٤هـ = ١١٦٨م والى الخليفة العباسي في اوائل سنة ٥٦٦هـ=١١٧٠م كما فوضه الاشراف على المدرسة النورية في دمشق . والتي سميت بعدئذ بالمدرسة العمادية ، نسبة اليه ، في رجب سنة ٥٦٧هـ = ١١٧١م وفي العام التالي اصبح العماد مشرفاً على دواوين المملكة كلها ، إضافة إلى مهمته في ديوان الانشاء والاشراف هو المراقبة وتفتيش امور الدواوين . فكأن المشرف هو المفتش العام للحكومة (٣٠) « فجمعت، يقول العماد ، بين المنصبين ، وقسمت زماني على النصيبين فمرة للكتب والمناشير وتارة للاثبات في الدساتير (٣١) ولم أثق بنائب وباشرت العمل بنفسي» (٣٢) .

وبعد توجه الموفق خالد القيسراني إلى مصر قام العماد مقامه وصار مستوفي المملكة واصبح بذلك الرجل الاول في الدولة واكثر من يعتمدهم نور الدين من الرجال حتى وفاته ، اذ اصبح العماد بمناصبه الثلاث تلك المسؤول الاول عن الكتابة والاشراف الاداري والمالي (٣٣) .

ويحدثنا العماد عن الثقة المتبادلة بينه وبين نور الدين ، وحرص الاخير على تجاوز (الروتين) الاداري فيقول «..وقد مال الي نور الدين وعول في مناصبه علي وطالعته كل يوم بمرافق عملي ومنافع شغلي . فما اتحف بتحفة .

(٣٠) دوزى : معجم ١/٧٥٠ عن العماد الاصفهاني : البرق ص١٢٠ هامش رقم ٢ .
(٣١) الدستور : هو الدفتر الذي تكتب فيه اسماء الجند ومرتباتهم (البرق ص١٢٢ هامش ١).
(٣٢) العماد الاصفهاني : البرق ، ص١٢٠ – ١٢٢
(٣٣) انظر العماد الاصفهاني : البرق ، المقدمة ص١٠ – ١١ ، ٣٦ ، ١٢٠ – ١٢٢ ابو شامة الروضتين ١/٣٧٧ – ٣٧٨ ، ٥٢٤ .

ولا اخص من احد بعطية الا اطالعه به واطلعه على سببه . فكان يعجبه مني تلك الشيمة ويقول : تصرف فيه تصرفك في مالك » (٣٤) ويمضي العماد إلى القول « ثم اعتمد علي اعتمادا كلياً وجعلني له نجياً ، واذا اراد ان يكتب إلي احد في مهم يقول : اكتب اليه من عندك . ومن جملة ذلك ان سعد الدين كمشتكين ، نائبه في الموصل ، اخذ من رجل الف دينار بعلة عللها ، فجاء — الرجل — وتظلم ، فأمرني نور الدين بان اكتب اليه بردها عليه . فقال كمشتكين : ما ينفعني الا كتابه وتوقيعه فانهيت ذلك اليه فقال : ما معناه ؟ اما يعلم كمشتكين انك كاتبي واميني وصاحبي ولا تكتب الا بامرى ؟ فان خالف كتابك اليه قلعت عينيه ! ! فمضى اليه بكتابي فسارع إلى طاعته وردعليه الالف في ساعته » (٣٥).

ومما لاشك فيه أن العماد الاصفهاني قد حقق نجاحاً كبيراً في مهماته الادارية الأمر الذي أكسبه ثقة نورالدين المتزايدة وجعله يظفر سريعاً ،في مدى لايتجاوز السنوات الست باهم وظائف الدولة واعلاها :الكتابة والاشراف (الاداري) والاستيفاء (المالي) وإذا صح ما يقوله الرجل عن نفسه ،وهو الارجح ،لما سبق وان ذكرناه ، فان نورالدين كان قد اعتمده إلى حد تفويضه الامر كاملاً في مناصبه تلك . ورغم ذلك فان العماد ماكان ليقدم على خطوة الا بعد أن يطلع سيده عليها ... وقد عمق هذا الموقف الذكي من الرجل الثقة بين الطرفين تلك التي استمرت حتى نهاية حكم نورالدين .

تلي هذه الاسماء في ميدان الادارة (أي بنو الداية وبنو أيوب والعماد الاصفهاني)أسماء أخرى أقل منها أهمية ،وان كان بعضها قد بلغ القمة التي بلغها اولئك الرجال رغم أن المصادر لم تشر اليها الا عرضاً ولم تقدم لنا عنها الشيء الكثير .

---

(٣٤) البرق : ص١٣١ — ١٣٢

(٣٥) البرق : ص١٣٢ — ١٣٣

هناك الموفق خالد بن محمد القيسراني مستوفي المملكة حتى عام٥٦٨ هـ = ١١٧٢م والذي يصفه العماد بانه كان عند نورالدين «في مقام الوزير ، وله انبساط زائد » (٣٦) ويذكر في (الخريدة) انه لما وصل الشام وجد القيسراني «في صدر مناصبها وبدر مراتبها ... وكان نورالدين قد رفعه واصطنعه وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه اشركه في الملك معه .ولقد كان حقيقاً بذلك »(٣٧) ويتحدث عنه أحد أحفاده المدعو معين الدين بن محمد فيقول « كان جدي خالد قريب المنزلة من نورالدين إلى الغاية ،واليه استيفاء دواوينه باسرها وكتابة الانشاء وامرة مجلسه ،وهو المشير الوزير،والامور كلها عائدة اليه(٣٨) وواضح أن عمله في كتابة الانشاء كان في الفترة التي سبقت توليها من قبل العماد الاصفهاني .

وهناك محمد العمادي صاحب نورالدين وأمير حاجبه وأحد كبار نوابهفي حلب وصاحب بعلبك وتدمر .(٣٩) كان كما يصفه سبط بن الجوزي « عزيزاً عند نورالدين ومن أعظم امرائه » ولدى سماع الاخير نبأ وفاته عام ٥٦٥هـ = ١١٦٩م ووفاة مجدالدين بن الداية في العام نفسه ،بكى وقال: قص جناحاي، وكافأ أولاد العمادي بمدينة بعلبك (٤٠)

والشيخ الامير مخلص الدين أبو البركات عبدالقاهر بن علي بن أبي جرادة الحلبي الامينعلى خزائن أموال نورالدين.توفي عام ٥٥٢هـ — ١١٥٧م ويصفهابن القلانسي بانه كان خير كاتب بليغ مستحسن الفنون ، حسن الخط مع صفاء الذهن وتوقد الفطنة والذكاء .وكان على علاقة وثيقة بابن القلانسي نفسهبحكم تردده بين حلب ودمشق ،وقد ريع الرجل لدى سماعه نبأ وفاة صديقه (٤١) .

(٣٦) البرق: ص١١٦.
(٣٧) قسم شعراء الشام: ص١٢٥ .
(٣٨) ابن واصل : بنو ايوب ٢٧٠/١
(٣٩) ابو شامة : الروضتين ٤٥٨/١ سبط : مرآة ٢٨٠/٨
(٤٠) مرآة ٢٨١/٨.
(٤١) دمشق: ص ٣٤٥ سبط فيجعل وفاته عام ٥٥٦هـ (مرآة ٢٣٩/٨ — ٢٤٠) .

وأبو سالم بن همام الحلبي الذي ولي الاشراف على الديوان بدمشق حتى عام ٥٥١هـ – ١١٥٦ م حينما كشف التحقيق معه عن استغلاله المنصب لسرقة أموال الدولة فألقي القبض عليه واعتقل ثم اصدر نورالدين أمراً بكشف خيانته للناس وعقابه عقاباً قاسياً والطواف به في الأسواق حيث كان المنادي يصيح « هذا جزاء كل خائن » وبعد أن أقام في المعتقل بدمشق أياماً أمر نورالدين بنفيه إلى حلب فغادر دمشق « على أقبح صفة من لعن الناس ونشر مخازيه ..(٤٢)

يلي هؤلاء موظفون آخرون لانجد عنهم سوى اشارات مقتضبه إلى أسماء الوظائف التي عهدت اليهم (٤٣) . وثمة حشد من الامراء الذين وردت

---

(٤٢) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٣٦ .

(٤٣) وهم : عبدالله بن احمد الحمدي المعروف بابن النقار الذي عمل كاتباً لنور الدين وكان يتميز بقدرته على الكتابة ونظم الشعر (سبط : مرآة ٢٨٩/٨) والشيخ ولي الدين اسماعيل الذي تولى خزانة بيت المال (العماد : البرق ص ٧٥) وضياء الدين بكريسان : الامير الحاجب مفتش العروض العسكرية الذي كان يعد من اكابر الامراء واعتمده نور الدين في كثير من الامور (نفسه ص ١٢٢) وجمال الدين ريحان الذي وصف بانه من اكبر الخدم (ابو شامة : الروضتين ٥٨٦/١) وهمام الدين مودود الذي كان– هو الآخر – من كبار الامراء وتولى حلب في بدء عهد نور الدين (نفسه ٥٧٩/١ – ٥٨٠) وابو شمام المحالي : ضامن دار الزكاة (ابن واصل : بنو ايوب ٢٦٩/١) وابو اليسر شاكر بن عبدالله المعري الذي تولى كتابة الانشاء قبل العماد الاصفهاني ، فلما استعفى وقعد في بيته تولى العماد كتابة الانشاء بعده (الطباخ : تاريخ حلب ٢٧٣/٤) والامير جمال الدين شاذبخت : الخادم الهندي عتيق نورالدين كان نائباً عن نور الدين في حلب وهو الذي بنى المدرسة المعروفة بأسمه هناك (ابن العديم : زبدة ٩/٣ ، ابو شامة : الروضتين ٥٩٥/١) وشهاب الدين ابو صالح العجمي : ناظر الديوان (العماد : البرق ص ١٣١) وشمس الدين محمد بن عبدالملك المعروف بابن المقدم الذي تولى اتابكية الملك الصالح بن نورالدين (ابن كثير : البداية ٢٨٥/١٢) ويبدو انه تولى هذه المهمة بعد تعيين الاتابك السابق سعدالدين كمشتكين نائباً لنور الدين في قلعة الموصل عام ٥٦٦ هـ (انظر : ابا شامة الروضتين ٥٨٧/١ والعماد : البرق ص٩٩) وابو نصر : الحاجب)(نفسه ص ١٤٦ – ١٤٧) وابو محمد الحكم : المشرف على رئاسة حلب (ابن العديم : زبدة ١٨/١٣) .

وامين الدين زين الحاج ابو القسم : متولي الديوان (ابن القلانسي : دمشق ص ٥٥) وعز الدين الدين جورديك المملوك : متولي ولاية القلعة (نفسه) ورضي الدين ابو غالب بن اسد التميمي : رئيس دمشق (ابو شامة : الروضتين ٤١/١/١ – ٤٢) ونظام الدين بن ابي المضاء : متولي الوزارة

اسماؤهم بين الحين والآخر ،دون أن يشار إلى الوظائف التي تسلموها ولعل أغلبهم كانوا قادة عسكريين أو امراء مرافقين لنورالدين في مهماته المدنية والحربية على السواء ،وبعضهم اشترك في حملات أسدالدين شيركوه على مصر واستقر به المقام هناك وتولى ،فيما بعد في عصر الايوبيين ،ارفع المناصب (٤٤)

أما الولاة والمقطعون ففيما يلي قائمة باهم الاسماء التي يستطيع الباحث أن يضع يده عليها .

مجدالدين بن الداية : قلعة جعبر ،عين تاب ،عزاز ، شيزر (٤٥)

بدرالدين بن الداية : حارم (٤٦) .

سابق‌الدين بن الداية : تل باشر . وعموماً فقد كانت لبني الداية جميع المعاقل المحيطة بحلب (٤٧) .

اسدالدين شيركوه : حمص واعمالها عام ٥٦٣هـ — ١١٦٧م الرحبة . ولما استقر بنو أيوب في مصر استرد نورالدين هذين الموقعين وعين عليهما عمالا آخرين (٤٨) .

بدمشق (نفسه) والمنتخب ابو سالم بن عبد الرحمن الحلبي : متولي كتابة الجيش وعرض الاخبار في ديوان نور الدين (ابن القلانسي : دمشق ص٣٥٣ — ٣٥٤) وابو الفتح عمر بن حموي شيخ الشيوخ الذي فوضه نور الدين امر الربط والزوايا والاوقاف في عدد من المدن الشامية (سبط : مرآة ٢٧٢/٨) ويبدو ان ذلك تم قبل منح صلاحية الاشراف على اوقاف المملكة لقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري . او لعله كان يعمل وغيره تحت امره الشهرزوري كمشرف عام.

(٤٤) من بين هذا الحشد من الامراء تبرز اسماء : غرس الدين قلج ، شرف الدين بزغش ، عين الدولة الياروقي ،سيف‌الدين المشطوب الهكاري ،شهاب الدين محمود الحارمي ،الفقيه عيسى الهكاري ،حسام الدين بن عيسى الجراحي ،فخر الدين بن الزعفراني ،اسامة بن منقذ الشاعر المؤرخ المعروف .

(٤٥) ابن الاثير : الباهر ١٣٦ — ١٣٧ ، ابن العديم : زبدة ٣٢٥/٢ ، ابو شامة : الروضتين ٣٨٦/١ — ٣٨٧ ، ٥٩٣ .

(٤٦) ابو شامة : الروضتين ٥٩٣/١ .

(٤٧) نفسه : ٥٩٣/١ ، ٥٩٥ .

(٤٨) نفسه : ٣٨٣/١ ، ٤٤١ .

الناصر صلاح الدين : مدكين (من ضياع كفر طاب) وزردنا من ضياع حلب (عام ٥٦٣هـ) = ١١٦٧م (٤٩)

مجاهدالدين بزان بن مامين : صرخد (عام ٥٤٢هـ)= ١١٤٧م (٥٠)

محمد العمادي : بعلبك ، تدمر وبعد وفاته عام ٥٦٥هـ = ١١٦٩م اعطيت بعلبك لاولاده (٥١) .

زين الدين عمر بن لاجين : حصن بعرين ، وعندما اتجه إلى مصر رتب نورالدين بدلا منه الامير عين الدولة الياروقي (٥٢) .

حسان المنبجي : سلم مدينة تل باشر سنة ٥٤٩هـ = ١١٥٤ م قبل أن يتولاها سابق الدين بن الداية (٥٣) .

قطب الدين ينال بن حسان : منبج (عام ٥٦٢هـ) = ١١٦٦م (٥٤)

علم الدين علي كرد : حماة (٥٥) .

حسام الدين طومان بن ملاعب : الرقة . (٥٦)

شهاب الدين مالك العقيلي : اخرج من قلعة جعبر عام ٥٦٤هـ = ١١٦٨ م وعوض بمدينة سروج واعمالها (٥٧) .

---

(٤٩) العماد : البرق ص ٧٠ – ٧١ .

(٥٠) ابوشامة : الروضتين ١٤٩/١/١ هامش ٠٧ ، وقد اشتهر الرجل باوقافه الكثيرة على ابواب البر منها المدرستان المنسوبتان اليه في دمشق (ابو شامة : الروضتين ٣٠٩/١/١) ويصفه ابن القلانسي بانه كان وجيهاً في الدولة ، موصوفاً بالشجاعة والسماحة ، مواظباً على الصلاة وعلى بث الصدقات في المساكين والفقراء مع الزمان (دمشق ص ٣٥٩) .

(٥١) ابو شامة : الروضتين ٤٥٨/١ ابن شداد : الاعلاق ص ٤٢ النعيمي : الدارس ٢٥٩/٢)

(٥٢) العماد البرق ص ٩٢ . .

(٥٣) ابن الاثير : الكامل ١٩٩/١١ .

(٥٤) نفسه ٣٢٩/١١ الباهر ص ١٣٤ – ١٣٥ ابن العديم : زبدة ٣٢٤/٢ – ٣٢٥ .

(٥٥) ابن منقذ : الاعتبار ص ١٩٨ هامش ٣٥ .

(٥٦) النعيمي : الدارس ٥٤٢/١ – ٥٤٣ .

(٥٧) ابن الاثير : الباهر ص ١٣٦ – ١٣٧ ابن العديم : زبدة ٣٢٥/٢ ابو شامة : الروضتين ٣٨٦/١ – ٣٨٧ .

قايماز الحراني (مملوك نورالدين) : حران (٥٨) .
خادم أسود لنورالدين (؟) : الرها (٥٩)
سعدالدين كمشتكين (خادم كذلك): قلعة الموصل (٥٦٦هـ) =١١٧٠م(٦٠)

ومن خلال الروايات الشحيحة عن الجانب الاداري والتي عرضنا لها في الصفحات السابقة نستطيع ان نتبين قائمة بأهم الادارات والوظائف في دولة نور الدين : النائب ، الوزير ، ناظر الديوان ، المستوفي ، المشرف ، امير حاجب ، والي الاقليم،والي البلد ، والي القلعة،الشحنة ، رئيس البلد ، الاتابك ، الخادم .

وكما سبق ان ذكرنا فان نور الدين اعتمد نفس النظم الادارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد ارسوا قواعدها العريضة ، وكان ابوه زنكي قد اعتمدها وافاد منها إلى حد كبير طيلة عشرين عاماً (٥٢١ — ٥٤١هـ) ١١٢٧ — ١١٤٦م وجاء الايوبيون فيما بعد ، والمماليك في اعقابهم ، لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول . وثمة اشارة للمؤرخ الفرنسي (فيت) تتضمن تأكيداً لهذه الحقيقة فهو يقول بان المنطقة كانت قد تأثرت في هذه المرحلة التاريخية إلى حد كبير او صغير ، بما أنشأه السلاجقة من نظم حربية واقتصادية وما لجأوا اليه من انشاء المدارس (٦١) . وقد اشار القلقشندي إلى هذه المؤثرات الحضارية للسلاجقة ، والاتابكيات التي تفرعت عنها في مختلف انحاء المنطقة ، بحيث ان اهم الدول والامارات التي قامت فيها كانت تستمد نظمها من هؤلاء في معظم الاحيان (٦٢).

وثمة نتيجة تتمخض عن هذه الاعتبارات وهي ان كل دراسة للنظم التي

---

(٥٨) ابن الاثير : الكامل ٤٠٧/١١ .
(٥٩) نفسه .
(٦٠) العماد : البرق ص ٩٩ .
(٦١) L'Egypte Arabe, P.230
(٦٢) صبح الاعشى ٥/٤ .

التزمتها الدولة السلجوقية ، او الدول والامارات التي اخذت عنها كاتابكية الموصل والدولة الايوبية وغيرهما (٦٣) تلقي ضوءاً في الوقت ذاته على المعالم الاساسية للادارة في عصر نور الدين ، خاصة وان دولته شملت مدناً ومواقع كان ابوه زنكي ، والسلاجقة من قبله ، قد نسقوا شؤونها الادارية ووضعوا بصماتهم عليها . ولنا هنا ان نمر على اهم هذه الوظائف — بايجاز — ووفق تسلسلها في الاهمية لكي نعرف بها تعريفاً سريعاً قدر ما يسمح به المجال (٦٤) .

فالنائب — كما يعرفه القلقشندي — هو »« القائم مقام السلطان في عامة اموره او غالبها » (٦٥) وقد كان النائب في العصرين الايوبي والمملوكي يشترك مع السلطان في منح لقب الامارة ، وتوزيع الاقطاعات ، وتعيين الموظفين ، ويعرض عليه كشفاً باسماء الاشخاص الذين يرى وجوب ترشيحهم للمناصب المختلفة ، فيقرها السلطان دون ان يرفض تعيين احد المرشحين الا نادرا (٦٦). وكان من اعمال النائب كذلك توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين والركوب على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية (٦٧). وترؤس اجتماعات ديوان الجيش (٦٨) وتلقي مكاتبات نواب المدن بصدد الامور المتعلقة بنياباتهم (٦٩) . وهكذا كان النائب هو المتصرف المطلق في

---

(٦٣) انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ٤/٥ .

(٦٤) سبق وان حللنا بالتفصيل كافة الوظائف والادارات المشار اليها آنفاً في بحثين سابقين ؛ اولهما (عماد الدين زنكي) (الفصلان التاسع والعاشر) وثانيهما (الامارات الارتقية في ديار بكر) (الفصل الأخير) . وقد نشر البحث الأول (الدار العلمية ، بيروت — ١٩٧١) اما الثاني فلم ينشر بعد .

(٦٥) صبح الاعشى ٤٥٣/٥ .

(٦٦) المقريزي : خطط ٢١٥/٢ السبكي : معيد النعم ص ٣٤ .

(٦٧) القلقشندي : صبح الاعشى ١٧/٤ .

(٦٨) نفسه ١٦/٤ المقريزي : خطط ٢١٤/٢ .

(٦٩) المقريزي : خطط ٢١٥/٢ .

شتى المجالات العسكرية والمالية والادارية (٧٠) وقد اكد (فان برشم) على ان نائب السلطنة كان على رأس الموظفين (٧١). وكان النائب في عهد زنكي والد نور الدين ، يمارس — هو الاخر — سلطات واسعة في شتى المجالات الادارية والمالية والعمرانية والعسكرية ، ذلك انه كان معتمده الاول في امارته (٧٢) وفي عهد نور الدين شهدت المدن الكبرى لدولته : حلب ، دمشق ، نولياً كان يستخلصهم من بين اكثر رجالاته كفاءة واخلاصاً ، وكانوا . يمارسون صلاحيات واسعة في المجالات العسكرية والمالية والادارية وكانت تقام لدى تعيين احدهم حفلة رسمية يمنح فيها خلعة شرفية وتقليداً رمزياً وكتاباً رسمياً يسمى التشريف (٧٣) . ولكن يجب ان لايغيب عن بالنا هنا ان مهمات نائب السلطنة في العصر المملوكي، كما يبينها القلقشندى وغيره ، لا تتطابق بالكلية مع مهماته في عهد نور الدين وأبيه زنكي من قبل ، وان مصطلح (نائب السلطنة) لم يرد بصيغته هذه الا في عصور تالية ، لا سيما وان ايا من الرجلين لم يتخذ لقب (السلطان) .

وتثير مشكلة (الوزارة) في عهد نور الدين نفس التعقيدات التي اثارتها بالنسبة لابيه زنكي (٥٢١ — ٥٤١هـ) بسبب غموض النصوص ، وندرتها واعتمادها طريقة التعميم الذي لاتتضح معه طبيعة الصلاحيات التي انطيت بالوزير . واغلب الظن ان ادخال وظيفة (النائب) إلى الجهاز الادارى منذ العصر السلجوقي جعل معظم اختصاصات الوزير وسلطاته العملية تتحول إلى هذا الموظف الرئيسي ، ومن ثم غدا منصبه اقل اهمية من ذى قبل .

---

(٧٠) نفسه .

(٧١) علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢١٥ .

(٧٢) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ص ٢٣٤ — ٢٣٥ وانظر الامارات الارتقية ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٧٣) انظر : — . Elisseeff : Nur Ad-din,pp. 778-790

ويشير اليسيف إلى ان الوزير – عموماً – هو رئيس الادارة والمسؤول عن الدوائر الكبرى .

الخزينة ، الدواوين ... الخ لكنه غدا في حكم نورالدين في الدرجة الثانية وأصبح أشبه بمستشار سياسي للدولة (٧٤) .

ومع ذلك فان الوزارة في هذا العهد والعهدين الايوبي والمملوكي اللذين أعقباه لم تفقد مكانتها نهائياً بدليل ما أورده المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة عن هذا المنصب .فالظاهري يقول « ومن انتصب لهذه الوظيفة – أي الوزارة لزمه النهوض بمهمات الدولة وامور المملكة ، بان يحمل أثقالها ويزيح اختلالها ويصلح أحوالها ويحفظ رجالها وينمي أموالها ،ويستخدم الكفاة ويوليهم أعمالهم ... فمن أخلص رفعه ومن غدر عزله .ويعتني بجهات الاموال وحراسة أسبابها ..وضبط حسابها والعدل في جبايتها ..ويقوم بتوزيع القطائع »(٧٥) كما يذكر القلقشندي أن الوزارة« من أجل الوظائف وارفعها رتبة في الحقيقة»(٧٦)

الا أن الذي حد من نفوذ الوزير في هذا العهد ليس فقط النائب وانما ايجاد مجموعة من الوظائف على رأس كل منها شخص يدعى الناظر ، كناظر الجيش وناظر الدولة (أي الذي يشارك الوزير في الأمور العامة والقضايا المالية) فضلاً عن الوظائف الاخرى آنفة الذكر (٧٧). ويجب أن نلاحظ – كذلك أن المصادر لم تشر بوضوح تام إلى منصب الوزير في عهد نورالدين ،فهي إذ تتحدث عن أحدهم تصفه حيناً بأنه كان (في مقام وزير) وحيناً آخر بأنه (المشير والوزير) أو (متولي الوزارة)، وهذا مما يزيد المشكلة تعقيداً لاسيما إذا تذكرنا أن بعض الحكام لم يشاءوا اتخاذ الوزراء احتراما للخليفة العباسي

---

(٧٤) Nurad, – PP· 786–787

(٧٥) زبدة كشف الممالك ص ٩٣ – ٩٥ .

(٧٦) صبح الاعشى ٣٨/٤ .

(٧٧) انظر : عماد الدين زنكي (للمؤلف) ص ٢٥٦ – ٢٦١ .

أما ناظر الديوان فكان يطلق – لدى المماليك – بصورة عامة على المسؤول الاعلى للديوان سواء كان ديوان انشاء أو بريد أو نظر (أي مالية) ...وكان يساعده في تسيير شؤون ديوانه عدد من الموظفين كالوكيل ومستوفي الدولة، وعدد من صغار المستوفين . كما كان يطلق بشكل خاصة على المسؤول عن القضايا المالية « وهو مخاطب عن كل مايتم في معاملته من خلل (٧٨) ».

وتعد وظيفة الاستيفاء من الوظائف المهمة التي عرفت لدى الدولة السلجوقية، وكان المستوفي يلي الوزير في الاهمية ،وكان من واجبه الاشراف على حسابات الدولة وتدقيقها وضبط الاموال المتعلقة بالجيش وادارة ديوان الاستيفاء (٧٩).

أما الاشراف على الديوان فكان يعد من الوظائف المهمة لدى السلاجقة ولها ديوان خاص يقوم المشرف بادارته ،وهو يعني بالاشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات والموازنة بينهما ،وهو في الحقيقة مكمل لديوان الاستيفاء ،ومثل المشرف كمثل المستوفي يستطيع أن ينيب عنه في كل ولاية نائباً .ونظراً لما بين المستوفي والمشرف من علاقة ،يكون المستوفي مراقباً لديوان الاشراف (٨٠) .

والامير الحاجب يشرف على ديوان الجيش ، وتختلف وظيفته عن وظيفة الحجاب القدماء اذ ان عمله هو ان « ينصف بين الامراء والجند ، تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمراجعة النائب ،واليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك (٨١) اما الحاجب نفسه فقد اختلفت صلاحياته حسب الازمنة اختلافاً كبيرا . وفي العصر الذي نتحدث عنه اصبحت مهمته

(٧٨) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٢٩٨ علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢١٣ عماد الدين خليل : الامارات الارتقية ص ٣٠٦ .

(٧٩) حسين امين : نظام الحكم في العصر السلجوقي، مجلة سومر مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ ، الامارات الارتقية ص ٣٠٧ – ٣٠٨ .

(٨٠) حسين امين : المرجع السابق ، الامارات الارتقية ص ٣٠٦ – ٣٠٨ .

(٨١) القلقشندي : صبح الاعشى ١٩/٤ وانظر : المقريزي خطط ٢١٩/٢ ، عماد الدين زنكي ص ١٩١ – ١٩٥ .

ابلاغ السلطان حالة الشعب وكشف مظالمهم امامه واطلاعه على الامور الرئيسية للدولة ، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الاعلى ، فالحاجب اذن ـ يشبه وزير الداخلية حالياً (٨٢) .

فاذا ما جئنا إلى ولاة الاقاليم والمقطعين فاننا لانجد المصادر تمنحنا قدرا كافياً من الروايات عن طبيعة المسؤولية التي كلف الولاة بها ، والجهاز الاقليمي الذي يعاونهم في شؤون الادارة ، وصلاحية تعيين اعضائه ، ولما كانت معظم المواقع (الولايات) يوم ذاك ذات قلاع وحصون فالمرجع ان اهم اعمال اولئك الولاة كانت ، حسبما ذكره القلقشندى « حفظ تلك القلاع وعمارة ما دعت الحاجة إلى عمارته منها ، واخذه بقلوب من فيها ، وجمعهم على الطاعة بالاحسان اليهم ، وتحصينها بالآت الحصار وادخار الآت الحرب ومهماتها والاعتناء بغلق ابواب القلعة وفتحها ، وتفقد احوالها في كل صباح ومساء ، واقامة الحرس وادامة العسس، وتعرف احوال المجاورين لها من الاعداء ، والمطالعة بكل ما يتجدد لديه من الاخبار » (٨٣) هذا بالاضافة إلى مهمات الوالي المالية والعسكرية الاخرى كمساعدة السلطان في عملياته الحربية بشكل مباشر ، اى بامداده بالجند والميرة ، او غير مباشر ، كأن يقوم بتوسيع منطقة ولايته والدفاع عنها ضد هجمات الاعداء (٨٤).

ونلاحظ ان المصادر استعملت كلمات مختلفة بالنسبة لتعيين الولاة على المدن مثل (تولى) و (سلم) و (اقطع) و (اعطي) و (رتب) و(عين) كما انها سمت بعضهم بـ(صاحب كذا ....).

بدلا من وال : وهذا يشير ـ بطبيعة الحال ـ إلى نوعية السلطة والاختصاصات التي كان الوالي يمارسها ، حيث نجد ان المقطع يتمتع بصلاحيات اوسع في

(٨٢) Elisseeff : Nur Ad-din, PP. 787-788,
وانظر السبكي : معيد النعم ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٨٣) صبح الاعشى : ٩٢/١١ .

(٨٤) عماد الدين خليل : الامارات الارتقية ص ٣٠٤ ، عماد الدين زنكي ص ٢٤٦ـ ٢٤٩.

مجال اقطاعه ، من الوالي الذي يمارس عملا ادارياً فحسب (٨٥) .
ويجب ان نلاحظ ان اقطاع امير ما مدينة من المدن ليس معناه — بالضرورة ان نور الدين جعله صاحبها ، بل المراد انه خوله الحق في ان يأخذ لنفسه صافي ايرادها بعد نفقات المنافع العامة ومرتبات الموظفين عسكريين ومدنيين وقد يقيم المقطع في اقطاعه اولا يقيم . لان ادارته كانت بيد رجال السلطان اى ان الاقطاع — على هذا — كان نوعا من المكافأة المالية إلى جانب الراتب(٨٦)

وعلى العموم فقد قسمت دولة نور الدين — ادارياً — إلى عدة اقاليم شهد كل منها عددا من الولاة او المقطعين : القسم الشمالي من بلاد الشام وقاعدته حلب ، والقسم الاوسط وقاعدته دمشق ، ومقاطعة حمص ، واقليم الجزيرة الذي ضم ثلاث مقاطعات : ديار ربيعة وقاعدتها الموصل ، وديار مضر وقاعدتها الرقة ، وديار بكر وقاعدتها امد . هذا فضلا عن الأقاليم التي فتحت فيما بعد كمصر واليمن ... ولم يغفل نور الدين عن ضرورة ربط هذه الاقاليم الادارية جميعاً بسياسة مركزية موحدة لمجابهة تحديات الصليبيين من جهة، ومحو اثار التمزق الذي عانته المنطقة طيلة العقود السابقة من جهة اخرى(٨٧) فهي — اذن — ليست محاولة لتنمية (الروح السورية) كما استنتج اليسيف(٨٨).

اما والي البلد فيرجح انه كان يقوم بنفس مهام الوالي المركزي لدى الايوبيين والمماليك — فيما بعد — حيث كانت مهمته « الاستعلام عن مجددات ولايته من قتل او حريق كبير او نحو ذلك (٨٩)» . وهو الذي ينفذ الاحكام ويقيم الحدود ويتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمر ومن اختصاصه

(٨٥) انظر عماد الدين زنكي ص ٢٤٩ .

(٨٦) حسين مؤنس : نور الدين محمود ص ٣٨٤ — ٣٨٥ وانظر عن (الاقطاع) في هذا العصر بالتفصيل الصفحات ٢١٢ — ٢٢٥ من كتاب (عماد الدين زنكي) و
Lambton Landlord and Peasant in Persia, (London 1953).

(٨٧) انظر : Elisseeff : Nur — Ad — din, PP. 781 - 783.

(٨٨) Ibid

(٨٩) القلقشندى : صبح الاعشى ٤/٦٠ .

ايضا مراقبة ابواب المدينة والطواف باحياء التجارة والمال (٩٠) اى ان مهمته اشبه بمهمة كل من البلدية والشرطة في الوقت الحاضر (٩١) .

وكانت اختصاصات والي القلعة — فيما يبدو — مشابهة إلى حد كبير لاختصاصات نائب القلعة لدى المماليك — فيما بعد — حيث كان هذا يقوم بالاشراف على فتح واغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم ويتفقد اسوار القلعة ومنافذها ويعمل على اصلاحها، ثم اصبح من اختصاصه الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات ، وهي اشبه بوظيفة الشرطة او الانضباط العسكري في الوقت الحاضر ، وكان يتمتع باستقلال كبير عن النائب (٩٢) .

والشحنة وظيفة استحدثها السلاجقة ويعين صاحبها من قبل السلطان وهي اشبه ماتكون بوظيفة الحاكم العسكري في عصرنا الحاضر ، يتمتع شاغلها بسلطات بوليسية وادارية ، وهو المسؤول عن ادارة المدينة وملاحظة الخارجين على النظام (٩٣) .

اما رئيس البلد ، او رئيس الاحداث ، فيتولى رئاسة جماعات مسلحة من سكان المدينة اشبه بالقوات الشعبية ، وكانت هذه الجماعات قد ازداد شأنها في بلاد الشام في مستهل القرن السادس الهجري واصبحت لهم السيطرة على الحياة في دمشق وصار لهم رئيس اتخذ لهم لقب رئيساً الاحداث او رئيس

---

(٩٠) علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢٣٠ .

(٩١) الامارات الارتقية ص ٣١٠ .

(٩٢) القلقشندى : صبح الاعشى ٤/٢٢ — ٢٣ ، العمري التعريف بالمصطلح الشريف ص٩٤— ٩٦ ، ١٤٨ — ١٤٩ ، علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢٣١ ، الامارات الارتقية ص ٣٠٦ .

(٩٣) حسين امين : نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ وانظر الامارات الارتقية ص ٣١٠ — ٣١١ ؛ Elisseeff ; Nur Ad -- din, P. 833

البلد ، ويقر والي المدينة اختياره ، وقد قلدت حلب اختها دمشق في ذلك (٩٤).

اما (الاتابـــك) فهي كلمة تتالف من لفظين تركيين هما (اتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى امير ، اى الامير الوالد (٩٥) « وليس للاتابك وظيفة ترجع إلى حكم وامر ونهي ، وغايته رفعة المحل وعلو المقام » وكان الاتابك يكلف من قبل السلطان الحاكم بالوصاية على واحد او اكثر من ابنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد (٩٦) .

وكان الخدم ، او الخدام ، يعملون سوية مع الحجاب في قضايا التشريفات والوفود وتنظيم امور القصر وتلقي المكاتبات احيانا (٩٧) .

وقد اولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيرا وجعلها — بما انها الاداة التنفيذية لاقرار مبادىء الحق والعدل ، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم — في قمة اجهزته الادارية ، وخول القضاة ، على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية ، صلاحيات واسعة ، ان لم نقل مطلقة ومنحهم استقلالا تاما (٩٨) في دراسة القضايا المعروضة عليهم واصدار احكامهم بصددها ، وتوج ذلك كله بانشاء (دار العدل) التي كانت بمثابة (محكمة عليا) لمحاسبة كبار الموظفين وارغامهم على سلوك المحجة البيضاء او طردهم واستبدالهم بغيرهم ان اقتضى الامر .

(٩٤) C. Cahen : Mouvements populaires, pp. 11--16 .
Flisseeff : op. cit, pp. 830 -- 832
السيد الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١/٢٤ — ٢٥ ، الامارات الارتقية ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٩٥) ابن خلكان / وفيات الاعيان ١/٣١٦ .

(٩٦) القلقشندي : صبح الاعشى ٤/١٨ ، عماد الدين زنكي ص ٢٢٦ هامش ١٧٦
Gibb : Damascus chronicle, pp. 23-27
Encyclopeadia of Islam, ed. 2, art : Atabak (by cl. cahen).

(٩٧) انظر القلقشندي : صبح الاعشى (طبعة ٢) ٧/٢٦٧ — ٢٦٩ ، ٨/٢٢٥ ، ٢٢٩
الامارات الارتقية ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٩٨) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٥ .

وكان شعاره ماأكده اصحابه مرارا « حرام على كل من صحبني ولايرفع الي قصة مظلوم لايستطيع الوصول الي » (٩٩) . ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي الذي كان احد نوابه في حلب ، هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال : كنت يوما انا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكرا فكرا عظيماً وجعل ينكش باصبعه الارض ، فعجبنا من فكره وقلنا : في اى شي يفكر ؟ في عائلته او في وفاء دينه ؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال : ماتقولان ؟ فأجبناه بعد تردد فقال : والله اني افكر في وال وليته امور المسلمين فلم يعدل فيهم ، او فيمن يظلم المسلمين من اصحابي واعواني ، واخاف المطالبة بذاك (امام الله) فبالله عليكم ،والا فخبروني عليكم حرام ، لاتريان قصة ترفع الي ، او تعلمان مظلمة ، والا واعلماني بها وارفعاها الي (١٠٠) .

يصفه ابن الاثير بانه « كان يتحرى العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان . القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولاأمير ، فلا جرم ان سار ذكره في شرق الارض وغربها (١٠١)

وكانت قمة اجراءاته القضائية انشاؤه دارا في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل) وكانت — كما ذكرنا — اشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت اقضيتها إلى سائر ابناء الامة . وقد جاء انشاؤها بسبب من تزايد عدد من كبار الامراء في دمشق ، وبخاصة اسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتناء الاملاك ، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الاخر ، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزورى فانصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الانصاف من شيركوه .

(٩٩) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٧٠ .

(١٠٠) نفسه ص ٢٥ .

(١٠١) الباهر ص ١٦٦ .

فانهي الحال إلى نور الدين ، فاصدر امره حينئذ ببناء دار العدل . يقول ابن الاثير « فلما سمع شيركوه ذلك احضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا ان نور الدين ما امر ببناء هذه الدار الا بسببي وحدي ، والا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب احدكم لاصلبنه فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وارضوه باى شيء امكن ولو أتى على جميع مابيدي . فقالوا له : ان الناس اذا علموا هذا اشتطوا في الطلب . فقال : خروج املاكي من يدي اسهل عندي من ان يراني نور الدين بعين اني ظالم ، او يساوى بيني وبين احاد العامة في الحكومة (اى القضاء) ، فخرج اصحابه من عنده وفعلوا ما امرهم ، وارضوا خصماءهم واشهدوا عليهم . فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده احد يشكو من اسد الدين ، فعرفه الحال فقال : الحمد لله إذ اصحابنا ينصفون من انفسهم قبل حضورهم عندنا » (١٠٢).

وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الاسبوع ، وقيل اربع مرات او خمس (١٠٣) للنظر في امور الرعية وكشف ظلاماتهم « لايطلب بذلك درهما ولادينارا ولازيادة ترجع الى خزانته ، وانما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله » (١٠٤). وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب ، لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية « ويامر بازالة الحاجب والبواب حتى يصل اليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، ويكلمهم باحسن الكلام ويستفهم منهم بابلغ النظام حتى لايطمع الغني في دفع الفقير بالمال ولاالقوى في دفع الضعيف بالقال . ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه فتغلب خصمها طمعا في عدله،ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من عدله.

---

(١٠٢) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٨ .

(١٠٣) انظر : ابا شامة : الروضتين ١/١/٣٣ .

(١٠٤) نفسه .

فيظهر الحق عنده فيجرى الله على لسانه ماهو موافق للشريعه ، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الامور الغامضة فلا يجري في مجلسه الا محضي الشريعة » (١٠٥) .

ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين ابناء امته على اى دين كانوا فكان كما يقول ابن الاثير «ينصف المظلوم ولو انه يهودي من الظالم ولو انه ولده او اكبر أمير عنده » . (١٠٦) وكان قبل انشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق « ليصل اليه كل احد من المسلمين واهل الذمة حتى نساؤهم» (١٠٧) الامر الذي يفسر لنا ماأورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الاولى نحو ثلاثة الاف (١٠٨) وفي الثانية الفا وخمسمائة ، كما يفسر لنا اتخاذ دمشق مقرا لرأس المثيبة(١٠٩) لعلماء فلسطين(١١٠) وتواجد العدد الجم من هؤلاء فيها » (١١١)

اما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فانهم لم يمسوا باذى — رغم ظروف الصراع الاسلامي الصليبي — وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ولم يعرف عنه « انه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قسا او راهبا.

---

(١٠٥) نفسه وانظر ابن الاثير : الباهر ص ١٦٨ وابن كثير : البداية ١٢/٢٨٠ و .
Elisseeff ; Nur Ad- din, pp.843-847

(١٠٦) ابن الاثير : الكامل ١١/٤٤

(١٠٧) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٥ .

(١٠٨) حوالي سنة ٥٧٧هـ (١١٨٠م) ، اي بعد اقل من مرور عقد على وفاة نورالدين وجد فيها الرحالة اليهودي الاخر المدعو (فتاحية) عشرة الاف يهودي : رحلة ٧٦م عن التطيلي رحلة ، ص ١١٧ هامش ١ .

(١٠٩) اللفظة ارامية تعني المجلس : المصدر السابق ص ١١٧ هامش رقم ٢ .

(١١٠) كان بيت المقدس مقر المثيبة حتى الغزوة الصليبية الاولى وعندها لجأ علماؤها اليهود الى (حدرخ) على مقربة من دمشق ، ومنها انتقلت الى العاصمة نفسها . وفي هذه المرحلة اصبحت مثيبة دمشق في منطقة نفوذ رأس مثيبة بغداد: المصدرالسابق ص١١٧ هامش ٣.

(١١١) المصدر السابق ص ١١٧ ، ١٢٢ .

وقد كان الصليبيون اذا دخلوا بلدا قتلوا جل اهله المسلمين. ولو انه تاثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر ، ولكنه كان انسانا عظيماً لايقيس نفسه باولئك الجفاة الذين اساؤا حتى إلى نصارى البلاد ، فظلت الكنائس في بلاده عامرة باهلها .. بل ان الصليبيين كانوا اذا خرجوا من بلد تنفس نصاراه الصعداء وامنوا إلى عدله وانصافه » (١١٢) .

وما كان نور الدين ، هذا الحاكم العادل ، ليضع بينه وبين الرعية حدا او جدارا : فيستثني نفسه من حضور مجلس القضاء والاذعان لحكمه اذا اذا ماادين بتهمة او ثبتت عليه .. وماا اكثر مايحكيه المؤرخون ويتناقلونه من روايات تبين لنا كيف كان الرجل يذعن للطلب ويذهب لحضور ساحة القضاء وتلقي كلمته كما يذهب اى مواطن عادى.

طلب مرة من قبل احد المدعين فما كان من احد كبار موظفيه الا ان دخل عليه ضاحكا وقال مستهزئاً : يقوم المولى إلى مجلس الحكم !! فانكر نور الدين على الرجل سخريته وقال : تستهزيء بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ واردف : يحضر فرسي حتى نركب اليه ، السمع والطاعة : قال الله تعالى (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا (١١٣) ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى احد اصحابه وقال له: امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له: اني جئت هاهنا امتثالا لامر الشرع : (١١٤) .

ويوما كان يلعب الكرة ، هوايته المفضلة ، في دمشق ، فرأى رجلا من اتباعه يحدث اخر ويومىء بيده اليه ، فارسل اليه يسأله عن حاله ، فاعلمه ان له مع نور الدين خصومة حول بعض الاملاك ، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة . فتردد الغلام في عرض الموضوع على

(١١٢) حسين مؤنس : نور الدين ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .
(١٣) سورة النور ، آيسة ٥١ .
(١١٤) ابو شامة : الروضتين ١/١/٣٦ – ٣٧ .

نور الدين ، لكن هذا الح عليه ، فلما تبين له الامر القى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له ، انني قد جئت محاكما فاسلك معي ماتسلكه مع غيري . فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه واذا لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا . فقال اشهدوا انني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه . وقد كنت اعلم انه لاحق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن انني ظلمته ، فحيثما ظهر ان الحق لي وهبته اياه (١١٥) « تلك هي غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان ، وهي درجة وراء العدل كما يعلق ابن الاثير »(١١٦) .

في عام ٥٥٨هـ =١١٦٢م ادعى رجل على نورالدين ان اباه(زنكي)اخذ من ماله شيئا بغير حق وانه يطالب بذلك . فقال نور الدين : انا لااعلم شيئا عن ذلك فان كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وانا ارد اليك مايخصني ، فاني ماورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثه غيري ... فمضى الرجل ليحضر البينة (١١٧) .

وفي حادثة اخرى نلتقي بنور الدين وقد استدعي إلى مجلس الحكم فمضى مسرعاً الا انه وجد اثناء طريقه مامنعه من العبور ، فوكل وكيلا واشهد عليه شاهدين بالتوكيل وقفل راجعا (١١٨) .

ولم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فان قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعد « فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر مايوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والاخذ بالظنة وامنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر» (١١٩) . ويحدثنا ابن الاثير .كيف ان احد اسباب

---

(١١٥) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٦ – ١٦٧ .
(١١٦) نفسه ص ١٦٧ .
(١١٧) ابو شامة : الروضتين ٣٤/١/١ .
(١١٨) نفسه ١٦/١/١ .
(١١٩) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٧ .

اقالة عبد المسيح، احد كبار مسؤولي الموصل، من وظيفته عام٥٦٦هـ=١١٧٠م كان خشونة الرجل على الرعية والمبالغة في اقامة السياسة (١٢٠) .

هذا على مستوى القضايا الخاصة ، واما القضايا العامة التي تكون (الحكومة) فيها طرفا في الموضوع ، او تتخذ اجراء باسم الصالح العام قد يمس بحقوق المواطنين فان نور الدين لم يكن اقل تحريا للحق والتزاماً بالعدل . وثمة وثيقة قيمة يثبتها لنا ابو شامة بنصها عن احد المحاضر التي دونت بصدد عدد من من قضايا الوقف والاملاك كانت قد ادخلت ضمن اوقاف الجامع الاموي بدمشق وسعى نور الدين إلى فصلها واعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصه مسائل الدفاع والامن . وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين في التزام الاسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لاطريق غيره للوصول إلى الحق وفيما يلي بعض مقاطع هذا المحضر ونماذج من المناقشات التي دارت فيه والاراء التي طرحت خلاله :

« حضر عند نور الدين بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنه ٥٥٤هـ=١١٥٩م القاضي زكي الدين ابو الحسن علي بن يحيي القرشي ، والفقهاء الشيخ شرف الدين بن ابي عصرون والخطيب عز الدين ابو البركات والامام عز عز الدين ابو القاسم بن الماسح الشافعيون وشرف الدين ابو القاسم عبد الوهاب المالكي وشرف الاسلام محمد بن عبد الوهاب الحنبلي ورضي الدين ابو غالب بن محمد بن اسد التميمي رئيس دمشق ونظام الدين بن أبي المضاء متولى الوزارة بدمشق ، وعدد من الاعيان من شهود العدالة بدمشق .فسألهم (نور الدين) عن المضاف إلى اوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفا عليه ، وان يظهر كل واحد منهم مايعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه وقال لهم : ليس يجوز لاحد منكم يعلم من ذلك شيئا الا ويذكره ولاينكر مما يقوله غيره الا وينكره والساكت منكم مصدق للناطق ومصوب، لقوله وليس العمل الا على ماتتفقون عليه وتشهدون به . وعلى هذا كان

(١٢٠) الباهر ص ١٥٣ – ١٥٤ .

الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين .. ثم امر نور الدين متولي اوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل وما يجري مع ذلك ان يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ، ضريبة الاوقاف موضعا ليفرد مايعلمون انه للمصالح (العامة) دون الوقف . فافتتح بالسوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارستان ، فقال بعضهم هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لانه احدث في طريق المسلمين وقد صرف ،في الجامع من اجوره اوفى مما عزم على عمارته من وقفه. فصدقهم الحاضرون على ماشهدوا به. ثم عين للمصالح أيضاً (بعدد الأماكن واحداً واحداً).. فلما شهدوا بصحة جميع ماذكر وأن منافع ذلك واجوره جارية في المصالح ،قال نور الدين ان أهم المصالح سد ثغور المسلمين . وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق ، لصيانة المسلمين وحريمهم واموالهم فصوبوا ماأشار اليه وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين؟ فافتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روّى في مهلة النظر ، وقال الشيخ ابن أبي عصرون الشافعي : لايجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره ، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة ، وإذا لم يكن بدء من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من اليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال • فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك . ثم سأل ابن ابي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا ؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك ؟ فقال نور الدين : لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا باذني وانا امرت به ...»(١٢١)

---

(١٢١) الروضتين ١/١/٤١ – ٤٤ (يجد القارىء هناك النص الكامل للوثيقة) .

اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالا ثقاة عرف كيف ينتقيهم ، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ، مايؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده ــ كما رأينا ــ قمة مؤسسات الدولة ، وحظى باستقلال تام واصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه وكبار امرائه.

ويبرز ، من بين حشد كبير من القضاة ،آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين ابي الفضل محمد بن الشهرزوري ، اولئك الذين كانوا قد تخصصوا منذ عهد عماد الدين زنكي وماقبله ، في المهام القضائية وبرعوا فيها ، كما يبرز اسم شرف الدين بن أبي عصرون .

وحدث في مطلع عام ٥٥٥هـ = ١١٦٠م أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها اعفاءه من القضاء، فأجابه إلى طلبه وولى قضاء دمشق القاضي الامام كمال الدين بن الشهرزوري وهو كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له « المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الأنصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم ، وحكم بين الرعايا باحسن أفعال في الحكم ».. وكتب له نور الدين منشورا بذلك بين فيه أنه في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة مافإن ولده محيي الدين ينوب عنه في منصبه (١٢٢) .

كان كمال الدين قد ولد عام ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين وولى قضاء بلدة الموصل ، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولا من عماد الدين زنكي ثم مالبث أن وفد على نورالدين(١٢٣) ويبدو من رواية لابن العديم (١٢٤) أن كمال الدين أصبح بعد أقل من عامين (٥٥٧هـ= ١١٦١م) قاضياً لقضاة الدولة كلها « وامر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا

(١٢٢) دمشق ص ٣٥٩ -- ٣٦٠ .
(١٢٣) ابن طولون : قضاة دمشق ص ٤٧ – ٤٨ .
(١٢٤) زبدة ٣١٢/٢ .

الكتب نيابة عنه» ، وان زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالاعفاء عام٥٥٥هـ=١١٦٠م وانما اعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن ان يكون احد نواب كمال الدين . ومهما يكن من أمر فان كمال الدين قد تمكن من منصبه واصبح في دمشق ، كما يقول العماد « الحاكم المطلق»(١٢٥)واصبحت دولته نافذة الأوامر منتظمة الامور(١٢٦) .وورد عنه كذلك انه « ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام » (١٢٧) .وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر بالابرار وحفظ الأصدقاء (١٢٨) ، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية ، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية . ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والأعمار فأشرف بنفسه على بناء اسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها (١٢٩) ،وقد فوضه نور الدين مهمة الاشراف على دار الضرب واوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الاسوار وحفظ الثغور فانجز مهمته على خير وجه (١٣٠) ، كما أولى عناية خاصة باعمار الجامع الأموي بدمشق والانفاق عليه بسخاء(١٣١). وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً على الخليفة العباسي في بغداد(١٣٢). كما اعتمد ابنه محيي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في امور ديوانها. وكان محي الدين هذا ، كما يصفه العماد « من أهل

---

(١٢٥) البرق ص ٣٢٢ .

(١٢٦) نفسه ص ١٤٦ – ١٤٧ .

(١٢٧) العماد : الخريدة قسم الشام ص ٢٤٦ هامش ٤ وقد اخطأ ابن طولون في تفسير هذه العبارة فظن ان نور الدين قد استوزره (قضاة دمشق ص ٤٧ – ٤٨) .

(١٢٨) العماد : البرق ص ٢٢٢ – ٢٢٤ .

(١٢٩) نفسه .

(١٣٠) نفسه ص ١٤٦ – ١٤٧ .

(١٣١) ابن كثير : البداية ٢٧٨/١٢ .

(١٣٢) ابن الاثير : الكامل ٣٩٥/١١ .

الفضل ، وله نظم ونثر وخطب ، وكانت معرفته (بالفقه) في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة ٥٣٥ هـ =١١٤٠م » (١٣٣) ،كما اعتمد في حماة وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم (١٣٤).وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦هـ = ١١٧٠ م أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري (١٣٥).

أما الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون الذي تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، واصبح هناك أشبه بقاضي القضاة، ينوب عنه في سائر المدن نواب اشرف على تعيينهم بنفسه(١٣٦)، فقد ولد بالموصل سنة ٤٩٢هـ (أو ٤٩٣) = ١٠٩٩ م وتفقه على جماعة من العلماء ، وانتقل إلى حلب سنة ٥٤٥هـ = ١١٥٠ م ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين اليها عام ٥٤٩ هـ =١١٥٤م ودرس في جامع دمشق ، وتولى اوقاف المساجد ، ثم رجع إلى حلب واقام بها ، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به . وكان فقيها من طراز أول ،ووصف بأنه من أفقه أهل عصره وانه أمام اصحاب الشافعي يومذاك ، وكان متوحداً في العلم والعمل . وسرعان ماتقدم عند نور الدين فكلفه بالاشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وحماة وبعلبك وغيرها ثم مالبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه ــ كما سبق وان ذكرنا ــ صلاحيات واسعة .(١٣٧). كما اعتمده عام ٥٦٦هـ =١١٧٠م رسولا إلى الخليفة المستضيىء في بغداد (١٣٨). وقد توفي عام ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ م .

(١٣٣) عن ابي شامة : الروضتين ١/٤٧٠ .
(١٣٤) ابو شامة : الروضتين ١/٤٧٠ ابن طولون : قضاة دمشق ص ٤٧ – ٤٨ .
(١٣٥) العماد : البرق ص ٩٧ .
(١٣٦) نفسه ص ١٠٠ .
(١٣٧) ابن خلكان : وفيات ٣/٥٣ – ٥٦ ابن طولون : قضاة دمشق ٤٩– ٥١
النعيمي : الدارس ١/٣٩٩– ٤٠٢ .
(١٣٨) سبط : مرآة ٨/٢٨٣ .

يمكن أن يخلص الباحث – أخيراً – إلى القول بأن إدارة نور الدين محمود سارت على خطط متوازٍ في رجالاتها وأجهزتها على السواء، فمن ناحية اعتمد نور الدين عدداً من الإداريين المخضرمين الذين سبق وان اعتمدتهم دول اخرى من قبل ،كما اعتمد الكثير من الأجهزة والمؤسسات المعمول بها في عصره. ومن ناحية اخرى عرف كيف يطعم إدارته هذه بعناصر شابة جديدة ،ويجري بعض التغييرات والتعديلات في عدد من وظائف دولته كي تكون أكثر ملاءمة لتسيير امور دولة وجدت نفسها في قلب الصراع مع الصليبيين .وفيما يتعلق بالقضاء بلغ نور الدين مرحلة متقدمة في منحه الاستقلال وتفويضه الاشراف على الكثير من القضايا الخاصة والعامة على السواء .

المصادر

ابن الأثير : عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ)
التاريخ الباهر في دولة الاتابكة ، تحقيق عبد القادر طليمات
دار الكتب الحديثة ، القاهرة — ١٩٦٣ م.
الكامل في التأريخ ، دار صادر ،بيروت — ١٩٦٦ م.

التطيلي : بنيامين بن يونة النباري الأندلسي (٥٦١ — ٥٦٩هـ).
رحلة بنيامين التطيلي: ترجمة عزار حداد ، المطبعة الشرقية
بغداد / ١٩٤٥ م.

ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ)
وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس.
دار صادر،بيروت — ١٩٦٨ م .

سبط بن الجوزي : شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ).
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، دائرة المعارف العثمانية،
حيدر آباد الدكن — ١٩٥١م .

أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت٦٦٥هـ)
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية
تحقيق محمد حلمي أحمد ، المؤسسة المصرية العامة ،القاهرة
—١٩٦٢م

ابن شداد : عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤ هـ) .
الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة.
قسم دمشق ،تحقيق سامي الدهان :المعهد الفرنسي .دمشق
— ١٩٥٦ م.
قسم حلب، تحقيق سورديل ، المعهد الفرنسي ، دمشق —
١٩٥٣ م.

ابن طولون : شمس الدين (ت ٩٥٣ هـ) .
قضاة دمشق الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام)
تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق — ١٩٥٦ م .

الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣ هـ) .
زبدة كشف الممالك .صححه بولس راويس المطبعة الجمهورية ، باريس / ١٨٩٤ م .

ابن العديم : كمال الدين عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ)
زبدة الحلب من تأر يخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق — ١٩٥٤م.

العمادالأصفهاني : محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ).
جريدة القصر وجريدة العصر ، جزء ٢ ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق — ١٩٥٩م .

سنا البرق الشامي ، وهو مختصر البرق الشامي اختصره الفتح بن علي البغدادي (ت٦٤٢هـ) ، القسم الأول ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت — ١٩٧١م .

العمري : شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ) .
التعريف بالمصطلح الشريف ، مطبعة العاصمة ، القاهرة — ١٣١٢ هـ .

ابن قاضي شهبة : بدر الدين (ت ٨٧٤هـ) .
الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت — ١٩٧١م .

ابن القلانسي : أبو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ).
ذيل تأريخ دمشق ، تحقيق امدروز مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت — ١٩٠٨م (اعادت طبعه مكتبة المثنى — بغداد).

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) .
صبح الأعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية وزارة الثقافة ، القاهرة — ١٩٦٣م (سلسلة تراثنا)

ابن كثير : اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) .
البداية والنهاية في التأريخ ،مطبعة السعادة القاهرة — ١٩٣٢م

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،مطبعة بولاق، القاهرة — ١٢٧٠ هـ.

ابن مماتى : الأسعد (ت ٦٠٦هـ).
قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ،مطبعة مصر— ١٩٤٣م .

ابن منقذ : اسامة بن مرشد الشيزري (ت ٥٨٤هـ) .
كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتي ،مطبعة الجامعة برنستون الولايات المتحدة — ١٩٣٠م ، (اعادت طبعه مكتبة المثنى — بغداد) .

النعيمي : عبد القادر محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ) .
الدارس في تأريخ المدارس تحقيق جعفر الحسني ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق — ١٩٤٨ — ١٩٥١م .

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ)
مفرج الكروب في أخباربني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، جامعة فؤاد الأول ،القاهرة — ١٩٥٣م .

أهم المراجع

حسن : علي ابراهيم
دراسات في تأريخ المماليك البحرية ، ط٢، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة — ١٩٤٨م .

الطباخ : محمد راغب بن محمود هاشم الحلبي .
اعلام النبلاء بتأريخ حلب الشهباء ،المطبعة العلمية ،حلب ٩٢٣ — ١٩٢٦م .

العريني : السيد الباز
الشرق الأوسط والحروب الصليبية ،دار النهضة العربية، القاهرة — ١٩٦٣م .

Elisseeff:Nikita.
Nur Ad-din:un Grand Prince Musulman De Syrie Au Temps Des Croiades, Institut. Franc ais De Damas, Damas 1967.

Gibb: H . H . R.
The Damascus Chronicle of the crusao es, London-1932

Th Encyclopaedia of Islam, 2ed.